

أ.بوسعيد رندا. جامعة الجلفة.

ملخص:

أحدثت تكنولوجيا الاتصال والمعلومات في السنوات الماضية تغيرات نوعية في العديد من أوجه الحياة الاجتماعية لدرجة أنها مهدت الانتقال من المجتمع الصناعي إلى مجتمع المعلومات بل تجاوزته نحو خلق نوع من المجتمعات الافتراضية التي تكونت عن بعد بالموازاة مع المجتمعات التقليدية ، فالاختراعات والابتكارات العلمية في وسائل الاتصال تركت أثرا واضحا في ملامح الفعل الاجتماعي وانعكست على الأساليب الفكرية للناس وعلاقاتهم وتفاعلاتهم ومجمل المظاهر الديناميكية للمجتمع الإنساني حتى سمي هذا الجيل بجيل الرقنة والتكنولوجيا.

يخضع التغير الاجتماعي لعوامل موضوعية ولا يحدث بصورة عشوائية بل وفق قوانين وأنماط منهجية ولذلك اهتمت العديد من الاتجاهات البحثية بتفحص العلاقة القائمة بين وسائل الإعلام وتكنولوجيا الاتصال الحديثة وظاهرة التغير الاجتماعي بالنظر إلى قوة هذه الوسائل وأهميتها المتزايدة وتأثيراتها الظاهرة والكامنة على الفرد والمجتمع.

مقدمة:

تُشكل المجتمعات الإنسانية قوالب فكرية متنوعة ذات تعدد فلسفي وثقافي واجتماعي، بسيطة كانت أم معقدة لفهم وتفسير مختلف الظواهر الاجتماعية التي تحدث فيها، وليس هناك جانب من جوانب الحياة الاجتماعية نال الاهتمام الذي ناله موضوع التغير الاجتماعي، إذ يعتبر من أبرز المواضيع السرمدية التي حاول الكثير من الفلاسفة والباحثين ورواد علم الاجتماع والتاريخ و الأنثروبولوجيا، تفسيره وتحديد ميكانيزمات حدوثه .

وتعتبر الثورات تاريخيا إحدى محركات التغير الاجتماعي والثورة في عالم (التكنولوجيا والاتصالات الالكترونية) بالتأيد من أبرزها ، فالتطور التقني الحاصل في تكنولوجيا الاتصال والمعلومات والاختراعات المادية التي تعرفها مختلف جوانب الحضارة البشرية اليوم ، فرضت نفسها كفاعل قوي و مؤثر في مختلف مظاهر التفاعل الاجتماعي ،وحازت اهتمام العديد من الباحثين في الاستخدامات السوسيوثقافية الجديدة وتأثيراتها داخل المجتمع إلى حد قول البعض منهم أن " التقنية هي من تصنع التاريخ".

ومن هذا المنطلق، تستهدف هذه القراءة توضيح أبرز معالم وأفكار نظرية مارشال ماكلوهان التي تعتبر من أهم وافضل ما نظر (بالزمة فوق النون) في تفسير العلاقة القائمة بين التطور التقني والتغير الاجتماعي، والعمود الفقري لمختلف نظريات التأثير الاعلامي والميديولوجية. من خلال الاجابة عن اشكال محوري:

كيف قارب مارشال ماكلوهان موضوع التغير الاجتماعي في اطروحته عن الحتمية التكنولوجية لوسائل الاعلام؟

" هل تدرك السمكة أنها مبتلة بالماء؟" هذا السؤال طرحه عالم الاتصال الكندي مارشال ماكلوهان ، الجواب طبعا " لا" ، فالسمكة لا تدرك أنها مبتلة بالماء لأن البيئة التي تعيش فيها السمكة مغلفة بالماء (بيئة مائية) إلى درجة أنها لا تشعر بالماء إلا في حالة فقدان الماء أو غيابه" ، هكذا هو الحال في علاقة أفراد المجتمع بوسائل الإعلام فهي موجودة حولنا في كل شيء ، نغمرنا لدرجة أننا لانشعر بوجودها وكذلك لا نستطيع تخيل حياتنا بدونها .

فالهواتف الذكية ، التلفاز ، شبكة الانترنت وغيرها من التقنيات التواصلية أصبحت ضرورة وسلطة حتمية في حياتنا، وهي الفكرة التي تتحور حولها نظرية مارشال ماكلوهان ، فكل اختراع تكنولوجي جديد يستقبل بنوع من الغرابة والدهشة من قبل المجتمع ، حتى يبدأ الفرد بالتعلم والتمرن على هذه الوسيلة ومن ثم بعد أن يصبح التعامل معها عادة يومية، تصبح ظاهرة اعتيادية ومنخرطة ضمن عادات وتقاليد المجتمع وجزءا من تركيبته وبنيته العميقة فيقول "الوسيط يغيرنا ويؤثر على البنية الفردية والاجتماعية، لأننا نتفاعل معه مرارا وتكرارا حتى يصبح جزءا من أنفسنا".

1. مقارنة مفاهيمية : (التغير الاجتماعي – الحتمية – التكنولوجيا)

تعود الجذور الأولى لبحث ظاهرة التغير في الحياة البشرية إلى تلك المحاولات المبكرة التي قام بها الإنسان الأول لمعرفة التغيرات التي تجري من حوله ، مرتبطة بملاحظاته المباشرة وتأملاته في التغيرات التي تحدث في بيئته المحيطة كفضول السنة ونمو النبات وتغير جسم الإنسان والحيوان وغيرها فيقول صموئيل كيوبنج " التغير في حد ذاته ظاهرة طبيعية تخضع لها ظواهر الكون وشؤون الحياة بالإجمال وهومن أكثر مظاهر الحياة الاجتماعية وضوحا (الجولاني ، 1993، ص11).

فالتغير لا يحتاج إلى تفسير وإنما عدم التغير هو الذي يستلزم بالضرورة تساؤلات عميقة، لاسيما في خضم الظروف والمعوقات المحيطة بدينامية الحياة البشرية على حد تعبير الفيلسوف اليوناني هيراغليطس "إن المرء لا يستحم في النهر مرتين"، لأن النهر يتغير بتغير جريان الماء فيه مثلما يتغير الشخص فور ملامسته الماء. (العززي، ص3)

* التغير:

التغير بالمفهوم المتعارف عليه يعد من السمات التي لزمّت الوجود الإنساني بحيث أصبح أحد السنن المسلم بها، والتفسير اللغوي للتغير هو التحول والتبدل، فيقال (تغير) الشيء (عن حاله) أي تحول وتبدل وجعله غير ماكان (فلاح جابر الغراي)، ويشير كذلك إلى الاختلاف ما بين الحالة الجديدة والحالة القديمة أو اختلاف الشيء عما كان عليه خلال فترة زمنية محددة. (زامل، 2010، ص3).

ويتضح من هذا أن التغير مصطلح محايد لا يحمل معنى التقييم بالسلب أو الإيجاب ويكتسب تلك القيمة انطلاقاً من الموضوع والممارسة التي يصدق عليها وصف "تغير"، ويختلف مفاهيمياً عن مصطلح "التغير" الذي يشير إلى (إحداث شيء لم يكن قبله) أي أننا أمام فكرتين أو اصطلاحين وهما التغير كآلية مجتمعية تلقائية والتغير كفاعلية بشرية إرادية. (زامل، 2010، ص3)

* التغير الاجتماعي:

إن اصطلاح التغير change يعني انتقال أي شخص أو ظاهرة من حالة إلى حالة أخرى أو هو ذلك التعديل الذي يتم في طبيعة أو مضمون أو هيكل شيء أو ظاهرة ما، ويقصد بمصطلح social الشخص وعلاقاته وتفاعلاته مع الآخرين، أما تركيبة (التغير – الاجتماعي) فإنها تشير إلى تلك العملية المستمرة التي تمتد على فترات زمنية متعاقبة يتم من خلالها حدوث اختلافات أو تعديلات معينة في العلاقات الإنسانية أو في المؤسسات أو التنظيمات أو في الأدوار الاجتماعية. (طبال، 2012، ص407)

تعددت تعريفات الباحثين وتقاربت صيغها بتعدد وجهات نظر العلماء وتعدد ظاهرة التغير الاجتماعي ذاتها ، فيعرفه جيه روشيه أنه " كل تحول في البناء الاجتماعي يلاحظ في الزمن ولا يكون مؤقتا وسريع الزوال لدى فئات واسعة من المجتمع " (عبدلي ، 2014 ، ص4)

ويرى عبد الباسط محمد حسن بأنه " كل تحول يقع في المجتمعات في فترة زمنية محددة، ويصيب تركيبه أو بنيانه الطبقي أو نظمه الاجتماعية أو القيم أو المعايير السائدة أو أنماط السلوك أو نوع العلاقات السائدة، وقد يكون التغير ماديا يستهدف تغير الجوانب المادية والتكنولوجية والاقتصادية وقد يكون التغير معنويا يستهدف تغيير اتجاهات الناس وقيمهم وعاداتهم وسلوكهم . (بوعطيط.2012، ص119)

بينما يقدمه موريس جنزبرج على أنه " حدوث تغير في بناء المجتمع والذي يشمل حجمه وتركيب أجزائه وشكل تنظيماته الاجتماعية ، كما يتضمن تغيرا في الاتجاهات والمعتقدات والتي طالما تساهم في تحقيق التغير في النظم الاجتماعية (عبدلي، 2014، ص4).

حاولت العديد من التعريفات مقارنة المفهوم وأبعاده سواء على مستوى الجماعات والنظم ، أو الأفعال والسلوكيات وأنماط التفاعل داخل النظام الاجتماعي ، غير أن هذا الحقل لازال منفتحا للبحث والتجديد خاصة وتداخل الحدود الفاصلة بين مفهوم التغير الاجتماعي وبعض المفاهيم المقاربة له مثل (ا لتقدم-النمو-التنمية- التطور- التغير الثقافي -التحديث) .

* الحتمية Déterminisme :

أطلق مسمى الحتمية déterminisme منذ القرن التاسع عشر على كل النظريات التي تحولت إلى علوم مستقلة، وما الشعور بالحتمي إلا الشعور بالشيء أو النظام الأساسي كما يقال ، فثمة في الواقع حتمية رياضية وأخرى فيزيائية للكون والعديد من التوجهات التفسيرية التي تبنت هذا المفهوم ، ويقصد بالحتمية "اعتبار متغير واحد على انه المحرك الأساس والمتغير الرئيس في تفسير أو فهم أي ظاهرة ".(بوعلي ، 2014 ، ص89)

بينما يعرفها عزام ابو الحمام بأنها " فلسفة تفترض أن لكل حدث في الكون بما في ذلك المجتمع الإنساني وإدراك الإنسان وتصرفاته خاضعة لقانون منطقي سببي ينطلق من سبب أصيل أو فائض يفضي حسب تعبير الفارابي بدوره إلى أنماط معينة من الظواهر". (أبو الحمام، 2015)

وقد تمت أيضا بوصفها مذهبا يرى أن كل ما يحدث في الكون على الإطلاق يخضع لقانون سببي ، فكل حادث تفسير سببي يشرحه و أسباب ضرورية وكافية تفسر حدوثه، وهذا ما دعا بعض المفكرين إلى القول أن الحتمية بمعناها البسيط ليست غير " الارتباط العلي " فالعلية (السببية) هي التعبير الظاهري للحتمية.

إن الحتمية ببساطة هي نموذج تفسيري يقوم على تصور مفاده أن ظاهرة ما تحدث نتيجة تأثير متغير وحيد ، وتتضمن مبدأ العلية أو السببية وتضيف فكرة الضرورة و اللزوم ، وتعددت نظريات الحتمية بتعدد تطبيقاتها والاعتبارات التي دفعت إليها، لكن العنصر المشترك بينها جميعا هو اتفاقها على خضوع الحوادث لقانون سببي ، فاصحاب الحتمية الأخلاقية مثلا يقولون أن الإنسان يسعى إلى اختيار الأفضل لأنه مفطور على الخير ولا يفعل الشر الا جهلا على غرار سقراط وديكارت، وحتى الحتمية التاريخية التي ترى أن للأمم والحضارات دورات حياة تشبه دورة حياة الكائنات الحية أمثال هيغل وابن خلدون ... (الموسوعة العربية، المجلد 8، ص40)

*التكنولوجيا:

ارتبط تعريف التقنية "التكنولوجيا " تاريخيا باشتقاقها اللغوي، فكانت بذلك (علم الفنون الصناعية) واختلفت المداخل الإجرائية في تعريفها باختلاف التخصصات المعرفية التي تناولتها بالبحث والدراسة ، إذ يعتبر المفهوم من أكثر المفاهيم شيوعا في المرحلة الراهنة وأكبرها اتساعا وغموضا في آن واحد .

فتعرف بأنها " العملية الاجتماعية الهادفة إلى استخدام المعرفة العلمية في تطوير الإنتاج " (السيد، 2004، ص5)، وتعرف أيضا " بأنها التقنية التي يستخدمها الناس في وقت معين من اجل التكيف مع الوسط البيوفيزيقي " (الآخرص، 187)

ويقدمها علي العيش على النحو التالي " أن العلم أساس المعرفة، والتكنولوجيا هي تطبيق للمعرفة، وأن العلم هو محرك التكنولوجيا، والتكنولوجيا هي محرك التنمية والتطور الاجتماعي ". (عزت ، 2013، ص 448)

ومنهم من يختصرها في عبارة " التكنولوجيا هي فن معرفة الوسيلة " أي أنها مجموعة المعارف والخبرات المتراكمة والمتاحة والأدوات والوسائل المادية والتنظيمية والإدارية والاجتماعية باعتماد المفهوم بشقيه (المادي والفكري)، حيث يشمل الشق المادي جميع المعدات والآلات والوسائل التقنية، ويشمل الجانب الفكري القواعد والأسس المعرفية التي يستخدمها المجتمع بهدف إشباع حاجاته المختلفة وتحسين ظروف بيئته.

إن الاختراعات التكنولوجية عامل متغير مع الزمن ، تنمو وتتطور كماً ونوعاً من الصور البسيطة إلى الصور المركبة بالموازاة مع التطور الذي تعرفه الحضارة الإنسانية (من الفأس والمحراث إلى الذكاء الاصطناعي في الروبوتات الآلية)، حيث يقول الانثروبولوجي الأمريكي ليزلي وايت أنه يمكن ملاحظة تطور الإنسان في استخدامه للطاقة منذ العصور الحجرية ، حيث استخدم أولاً الأدوات ثم النار ثم الآلات البخارية ثم الطاقة النووية ، فتاريخ التطور التكنولوجي ينظر إليه على أنه انعكاس لمراحل تطور وتقدم الحياة البشرية ، وكل تطور تقني مهما كانت ملامحه يستلزم نوعاً من التكيف والتغير وكل مرحلة تعتمد على اكتشافات واختراعات المرحلة السابقة في إطار تغير مستمر على الدوام.(السيد ، 2004، ص5).

وترتبط التكنولوجيا بالمجتمع ارتباطاً وثيقاً فهي انعكاس لثقافته المادية والفكرية ، ولا يهتم علم الاجتماع بها اهتماماً مجرداً وإنما تنطوي معظم الدراسات التي اهتمت بالتقنية أو التكنولوجية من هذا المنظور إلى محورين رئيسيين : الأول يتناول الوسائل التي تؤثر بها الشروط الاجتماعية في التقنية ، ويتم التركيز في هذا المجال على فكرة التغير التقني . ويتمحور الثاني حول علاقة التكنولوجيا بالمجتمع ، ويعالج الآثار الاجتماعية الناجمة عن استخدامها ، ويهتم بالتكنولوجيا بشكل أعمق كعاني وأبعاد وانعكاسات تؤدي أثرها ودورها في إحداث التغير الاجتماعي عندما تتراكم في مجال الثقافة المادية نتيجة عامل الاختراع والاكتشاف ، الاستخدام والانتشار ، بحيث تعمل الجوانب المادية على دفع عجلة الجوانب اللامادية للمجتمع والتي يعبر عنها عادة بالثقافة والقيم نحو التغير.

2. الاتجاهات الفكرية والنظرية المفسرة للتغير الاجتماعي:

تعني النظرية في المعام العربية - قضية تثبت بالبرهان - أو طائفة من الآراء التي تفسر الوقائع العلمية أو الظنية ، وتؤطر البحث في المشكلات القائمة على العلاقة بين الفرد والموضوع أو السبب والمسبب، وطبيعة العلاقة القائمة بين المتغيرات الخاصة

بتلك الظاهرة، فالنظرية الاجتماعية تقليدياً كما يقول جون ماركس "إما أنها تشرح الاستمرارية أو أنها تشرح التغير". (ماركس، توفيق وآخرون، 2014، ص30)

والحديث عن التغير الاجتماعي في الفكر السوسيولوجي واتجاهاته يحيلنا إلى إسهامات العديد من الرواد الذين اعتبروه أهم موضوعات علم الاجتماع الحديث ، وإن كان مصطلح التغير الاجتماعي بوصفه دراسة علمية على الحالة التي هو عليها الآن يعتبر من المصطلحات الحديثة نسبياً ، فقد استخدم أول مرة وبصورة عرضية في كتابات " آدم سميث " في كتابه " ثروة الأمم " في القرن 18 ولم يتداول إلا بعد أن وضع وليم أوجبرن كتابه المعروف " التغير الاجتماعي " عام 1922 (زامل ، 2010، ص 257).

تعتبر نظريات التغير الاجتماعي من أصعب جوانب دراسة التغير الاجتماعي، وتختلف عن بعضها البعض من حيث المفاهيم المستخدمة والتوجه الفكري لمنظرها، لكنها تتفق جميعاً في محاولتها فهم وتفسير ميكانيزمات حدوثه، ويمكن تقسيم النظريات السوسيولوجية التي قاربت مفهوم التغير الاجتماعي إلى اتجاهين محوريين:

يفسر الاتجاه الأول التغير في ضوء العوامل الداخلية النابعة من المجتمع في حد ذاته والتي يمكن ان يعزى لها هامش من المسؤولية في حدوثه ، بينما يؤكد الاتجاه الثاني على العوامل الخارجية ، وهو الشكل الغالب في التفكير الاجتماعي حول التغير إذ تنطوي تحته العديد من النظريات المعروفة على غرار نظرية الفعل الاجتماعي ، نظرية الدوافع الشخصية ، نظرية الدور الاجتماعي ، نظرية التبادل ، ، نظرية التحديث ، ، نظرية العبقورية والنظريات الحتمية التي تنطوي تحتها أطروحات النظرية محل الدراسة ، وإن لم يكن التغير الاجتماعي كظاهرة هو السبب والدافع الأول وراء بناء ماركسها لفروضاها .

النظريات الحتمية :

يعنى بالنظريات الحتمية في الكتابات السوسيولوجية الحديثة المذاهب التي تفسر السلوك الإنساني والتغيرات فيه، تفسيراً أولياً بالظروف البيئية والخارجية ، ويشار إلى هذا النمط من التفسير بالحتمية البيئية أو النظريات الاختزالية (أي أنها تختزل العوامل في عامل واحد) إذ يحدث التغير الاجتماعي حسبها نتيجة توفر قوى معينة اجتماعية وطبيعية دون أن يكون للإنسان نفسه دخل في معظم الأحوال.(أسامة بدير ، 2015، ص2).

وتختلف هذه النظريات عن بعضها البعض في طبيعة العامل العلي والحتمي المسبب للتغير، فتتفرع منها الحتمية البيولوجية التي تركز على الاختلافات الوراثية في الذكاء والقدرات، والحتمية الجغرافية التي تفسر التغيرات الاجتماعية بعوامل المناخ والتربة والموقع الجغرافي، والحتمية الاقتصادية بناء على العامل الاقتصادي كمحدد للبناء الاجتماعي، والحتمية التكنولوجية التي ترى أن أصل كل تغير اجتماعي هو استجابة للتغير في الوسائل التكنولوجية، وهو الطرح الثوري الذي تبناه الباحث الكندي مارشال ماكluهان في رؤيته للعلاقة القائمة بين التطور التقني لوسائل الاتصال وظاهرة التغير الاجتماعي.

3 - الحتمية التكنولوجية لمارشال ماكluهان

أولا : ألبرت مارشال ماكluهان Marchal Macluhan

حياته/

مارشال ماكluهان ، باحث في التربية والفلسفة ، عالم اجتماع ، أستاذ أدب انجليزي ومن أشهر الرواد المنظرين في الاتصال ، ولد في 21 جويلية 1911 في مدينة أيدمونت بـ " ألبرتا " بكندا ، والدته كانت ممثلة وأبوه تاجر عقارات، كان ينوي دراسة الهندسة لكنه درس الأدب الانجليزي بجامعة مانيتوبا وتحصل على الماجستير سنة 1934، اعتنق الكاثوليكية سنة 1937 وأصبح مستشارا للفاتيكان لاحقا ، أكمل ماكluهان دراسته بجامعة كامبردج Cambridge بانجلترا تحصل على الدكتوراه منها سنة 1943 في الأدب الانجليزي ، عاد سنة 1944 إلى كندا ودرس بكلية Windsor ومن ثم رحل سنة 1946 إلى (تورينتوا) لتدريس الأدب الانجليزي في معهد سان ميشال أين أصبح عضوا في مدرسة الاتصال المشهورة بها.

امتازت مؤلفات ماكluهان بطابعها التنبؤي لذا أطلق عليه في الغرب لقب " نبي العصر الالكتروني " ويعد أول من استخدم مصطلح العولمة معنيا حينما صاغ جملته الشهيرة القرية الكونية "global village"، مبشرا بتقلص المجتمع الإنساني الى قرية كونية صغيرة تتشابك بفعل ثورة المعلومات والتطور التكنولوجي الحاصل في وسائل الإعلام والتواصل.

أجريت له سنة 1970 عملية في الدماغ لاستئصال ورم سرطاني وتوفي بعدها في 13 ديسمبر 1980 تاركا إنتاجا علميا ثريا من مئات المقالات المنشورة في المجلات و مجموعة من الكتب المهمة:

- (العروس الميكانيكية) سنة 1951

– (مجرة غوتنبرغ) التي نال عليها جائزة الحاكم سنة 1962

– (لفهم وسائل الاتصال)سنة 1964

– (الوسيلة هي الرسالة) سنة1967

– (الحرب والسلم في القرية العالمية) سنة 1969. (تواتي، 2013، 187).

ثانيا : المنطلقات الفكرية للنظرية

أبدى العلماء والباحثون في مجال الاتصال وعلم الاجتماع وحتى الانثروبولوجيا اهتماما بالغاً بكتابات ماكلوهان وأثارت أطروحته نقاشا وانتشارا منقطع النظير ، إذ تم اعتباره من أوائل كتاب الحداثة الذين يرون أن المجتمع أصبح مجتمع معلومات، وأن التطور التقني في قنوات الاتصال من أعظم الثورات التي تعرفها الحضارة الإنسانية.

استند ماكلوهان في بناء نظريته الحتمية على أفكار وأطروحات الفلاسفة الغربيين أمثال آدم سميث وجون ستيوارت ميل و نيتشه ، إذ تركز في جوهرها على القوة الاقتصادية والصناعية التي عرفتها أوروبا في عصر النهضة الصناعية في القرن 18 حينما كان كل تغير اجتماعي يعزى إلى القوة المادية وسطوة الآلة والتقنية.

وكانت له الأسبقية في التوجه نحو الدراسات ثلاثية (التكنولوجيا -الثقافة - الاتصال) في المجتمع المعاصر، حيث تأثر بالتوجه البحثي لجامعة (تورينتوا) وأعمال كل من هارولد انيس و اريك فافلوك ، الذين درسا الكيفية التي ساهم بها الأدب الإغريقي في الانتقال بالمجتمع اليوناني من ثقافة شفوية سائدة إلى ثقافة مكتوبة ناشئة ، خاصة أطروحات أنيس في كتابه (الإمبراطورية والاتصال سنة 1950) الذي مكن ماكلوهان من أن يؤسس لنظريته الخاصة بالتغير الاجتماعي وينقلها في مؤلفه (مجرة غوتنبرغ) إلى حالة القرن 20 ، معتقدا بالفكرة القائلة أن تغير أنظمة الاتصال هو الذي يفسر التغير التاريخي للمجتمعات.

ولهذا كان ماكلوهان شديد الإعجاب بعمل المؤرخين أمثال الدكتور وايت white صاحب كتاب (التكنولوجيا والتغير الاجتماعي) الذي ظهر سنة 1962 وفيه يذكر المؤلف " أن الاختراعات الثلاثة التي خلقت العصور الوسيطة هي الحلقة التي

يضع فيها راكب الحصان قدمه stirrup وحدوة الحصان Nailed horseshoe ، والسرج collar hourse ، فبواسطة الحلقة التي يضع فيها راكب الحصان قدمه استطاع الجندي ان يلبس درعا يركب به الحصان الحربي وبواسطة الحدوة والأربطة التي تربط الحصان بالعربة Harness توافرت وسيلة أكثر فاعلية لحث الارض، مما جعل النظام الاقطاعي الزراعي يظهر ، وهذا النظام هو الذي دفع التكاليف التي تطلبها درع الجندي.. " وتابع ماكلوهان الفكرة بشكل أكثر عمقا ليعرف أهميتها التكنولوجية خاصة في قوله " إن النسيج الاجتماعي هو الثقافة المتقدمة بخطى التكنولوجيا، وتبنى المجتمعات البشرية ثقافيا بواسطة المادية التكنولوجية ، وتبنى اجتماعيا بفضل التطور الاجتماعي " .(جاسم فليحي الموسوي، ص3)

ثالثا : أهم أطروحات النظرية :

تعتبر نظرية الحتمية التكنولوجية من النظريات المادية التي اهتمت بتأثير تكنولوجيا وسائل الإعلام على شعور وتفكير وسلوك الأفراد وعلى التطور التاريخي للمجتمعات ، فحينما ينظر مارشال ماكلوهان إلى التاريخ يأخذ موقفا نستطيع أن نسميه بالحتمية التكنولوجية technical déterminisme ، فبينما كان كارل ماركس يؤمن بالحتمية الاقتصادية وأن النظام الاقتصادي للمجتمع يشكل جانبا أساسيا لفهم ديناميكيته، ويؤكد فرويد Freud بأن الجنس يلعب دورا أساسيا في حياة الفرد والمجتمع ، كان ماكلوهان يؤمن بأن الاختراعات التكنولوجية المهمة هي التي تؤثر تأثيرا أساسيا في التغير الاجتماعي.(تواني ، 2013، ص 179).

ويفترض أن " التحول الأساسي في الاتصال التكنولوجي يجعل التحولات الكبرى تبدأ ، ليس فقط في التنظيم الاجتماعي ، ولكن أيضا في الحساسيات الإنسانية " فالنظام الاجتماعي في رأيه تحدده وسائل الإعلام وبدون فهم الأسلوب الذي تعمل بمقتضاه تقنياتها لا نستطيع أن نفهم التغيرات الاجتماعية والثقافية التي تطرأ على المجتمع.

وأعتبرت أفكاره خارجة عن المألوف وغير متواترة عن ما تم الاعتياد عليه في بحوث وسائل الإعلام وتأثيراتها الاجتماعية ، مناقضة للتيار الذي كان قائما حول تأثير الرسالة الاتصالية حينها (المدرسة الأمريكية) إذ يقول "إن مضمون وسائل الإعلام لا يمكن النظر إليه مستقلا عن تكنولوجيا الوسائل الإعلامية نفسها ، فالكيفية التي تعرض بها المؤسسة الإعلامية الموضوعات، والجمهور الذي توجه له رسالتها، يؤثران على ما تقوله تلك الوسائل ولكن طبيعة وسائل الإعلام التي يتصل بها الإنسان تشكل المجتمعات أكثر مما يشكلها مضمون الاتصال".

ويضيف أن وسائل الإعلام التي يستخدمها المجتمع أو يضطر إلى استخدامها، ستحدد طبيعة المجتمع وكيف يعالج مشاكله وأي وسيلة جديدة هي امتداد للإنسان، فالملابس والمساكن و التقنيات هي امتداد لجهازنا العصبي المركزي، وكاميرا التلفزيون تمد أعيننا والميكروفون يمد آذاننا، والآلات الحاسبة توفر بعض أوجه النشاط التي كانت في الماضي تحدث في عقل الإنسان فقط، فهي مساوية لامتداد الوعي وهو ما اختزله في العبارة الشهيرة " وسائل الإعلام امتداد لحواسنا".

أ - مراحل تطور التواصل الإنساني:

ولأن طبيعة وسائل الإعلام المستخدمة في كل مرحلة ساعدت على تشكيل المجتمعات أكثر من المضمون، يقسم ماكلوهان بالاعتماد على وسائل الاتصال الجماهيرية، تطور التاريخ الإنساني إلى سلسلة من المراحل الثقافية والتقنية (التكنولوجية):

المرحلة الشفوية : تعتمد كلية على الاتصال الشفهي، مرحلة ما قبل التعلم أو المرحلة القبلية .

مرحلة كتابة النسخ: التي ظهرت في اليونان القديمة واستمرت ألفي عام

عصر الطباعة: من سنة 1500م إلى سنة 1900م تقريبا .

عصر وسائل الإعلام الالكترونية : من سنة 1900 تقريبا على يومنا الحالي.

مشيرا بذلك إلى أن التغير الأساسي في التطور الحضاري منذ أن تعلم الإنسان إن يتصل كان من الاتصال " الشفهي " إلى الاتصال " السطري " ثم إلى الاتصال "الشفهي مرة أخرى.

1- الاتصال الشفهي: يقول ماكلوهان إن الناس يتكيفون مع الظروف المحيطة عن طريق توازن الحواس الخمس (السمع /البصر/اللمس/الشم/ والتذوق) مع بعضها البعض ، وكل اختراع جديد يعمل على تغيير التوازن بين الحواس ،فقبل اختراع جوتنبرغ الحروف الكاتبة في القرن 15 كانت الثقافة السمعية هي المسيطرة ولذلك نجد الشعر مثلا من أهم مظاهر التحضر حينها.

2- الاتصال السطري: كانت المجتمعات في مرحلة ما قبل التعليم تحتفظ بالمضمون الثقافي في ذاكرة أجيال متعاقبة ،ولكن بعدها تغير أسلوب تخزين المعرفة وأصبحت الكتب والحروف والعين مكان الأذن كوسيلة الحس الأساسية، وسمحت بتطوير المدن والهندسة والطرق البريدية والجيش والبيروقراطية وبناء الحضارة، فالصحافة المكتوبة حسب ماكلوهان أكثر الابتكارات التكنولوجية تأثيرا على الإنسان ،فالمطبوع جعله يتخلص من القبلية .

3- التواصل عن طريق المطبوع: وفر اختراع جوتنبرغ الكتب والقراءة والنسخ وساعد المطبوع على نشر المصدر الفردي كوسيلة شخصية للتعليم، وأصبحت الكلمة المكتوبة أساس الحصول على المعلومة بدل الكلمة المنطوقة، وهو محور المقارنة ولاختلاف بين المجتمعات المتعلمة والمجتمعات ما قبل التعلم، لأن التطور في نظره لم يبدأ بالثورة الصناعية في أوروبا ولكن بأول صفحة مطبوعة سحبها جوتنبرغ من المطبعة.

4- العودة إلى الاتصال الشفهي : يسمي مكلوهان المرحلة التي نعيشها حاليا عصر الدوائر الالكترونية وتتمثل خاصة في التلفزيون ، الكمبيوتر، وغيرها من الابتكارات الحديثة التي تشكل ملامح الحضارة في القرن العشرين ، حيث أحدثت وسائل الإعلام الالكترونية تغيرا كبيرا في توزيع الادراك الحسي او كما يسميها مكلوهان نسبة استخدام الحواس (sensory ratios) فامتداد أي حاسة يعدل الطريقة التي نفكر او نعمل بمقتضاها ، وتعديل هذه الأخيرة الطريقة التي ندرك بها العالم وحينما تتغير تلك النسب يتغير الإنسان.(تواقي، 182، 2013)

ب- الوسيلة هي الرسالة the medium is the message:

يرفض مكلوهان نقاد وسائل الإعلام الذين يدعون أن وسائل الإعلام كتقنية حيادية وأن الاستخدام وحده من يحدد قيمتها ، بل يدعوا إلى التفكير في طبيعة وشكل هذه الوسائل خاصة الجديدة ، فالتأثير العميق للتلفزيون مثلا ليس في المضمون الثقافي أو السياسي بل في الطريقة التي يعدل بمقتضاها الناس الأساليب التي يستخدمون بها حواسهم .

وأن التكنولوجيا الإعلامية أهم وأبقى وأشد فعالية وأعمق تأثيرا من المضمون الفكري والصياغة اللغوية والنوايا الفردية أو الجماعية التي تصدر عنها الرسالة الإعلامية ، والتلفاز مثلا كوسيلة اتصال هو بذاته الرسالة وبغض النظر عن محتوى البرامج التي سوف يعرضها فإن الناس لن يتوقفوا عن مشاهدته ومهما كان نمط المشاهدة والتفاعل الذي يبيده المتلقي .

ويقسم مكلوهان وسائل الإعلام في اهتمامه بتأثيراتها إلى قسمين ، وسائل ساخنة ووسائل باردة حسب نمط تفاعل الأفراد معها والجهد الذي يتطلبه فعل التلقي والمتابعة .

ج - القرية الكونية global village:

أو (القرية العالمية) كما هو متواتر في الدراسات الأكاديمية ، تعتبر من أهم المفاهيم والعبارات الجوهرية التي طرحها مكلوهان في نظريته والتي جاءت في كتابه " الحرب والسلم في القرية الكونية "، إذ يرى مكلوهان أن وسائل الإعلام تحول العالم إلى قرية

صغيرة عالمية ، تتصل في إطارها جميع أنحاء المعمورة ببعضها البعض ، في عالم يتوقف فيه الزمن وتختفي فيه المساحة فيقول "إن العالم في طريقه بفضل ثورة الاتصال إلى أن يصبح قرية كونية صغيرة أو فلنقل قرية إلكترونية بشكل من الأشكال " أي أن العالم اليوم يعيش مرحلة العقل الإلكتروني الموصول بشبكة من الأعصاب الممتدة إلى أجزاء الجسم الكوني، حتى إذا ما نشبت أزمة ما هنا أو حرب هناك جاءت الإشارات لتأثر في تفكير الجميع في هذا العالم وتندبرهم بالخطر المشترك ،أما في وقت السلم تصبح وسائل الإعلام الإلكتروني كتنقية محركا للتغير الاجتماعي.(العيد، 2010).

رابعا : الانتقادات الموجهة للنظرية:

إن القول بأن التغيرات الاجتماعية تحدث نتاج تأثيرها بالعامل التكنولوجي وحده ،يعتبر تجاهلا للعوامل الأخرى التي تؤثر في المتغير حيث أن الكثير من التغيرات الاجتماعية تحدث دون تغيرات تكنولوجية.

وفي الإجابة عن السؤال الذي طُرح حول إمكانية اعتبار التغير التكنولوجي حتميا لا مفر منه ؟ أجاب ماكلوهان عن ذلك بقوله أنه "بمعرفة كيف تشكل التكنولوجيا البيئة المحيطة بنا ،نستطيع أن نسيطر عليها ونغلب تماما على نفوذها أو قدرتها الحتمية ،وبفهم عناصر التغير يمكن توجيهه واستثماره للأفضل بدلا من الوقوف في وجهه".

بينما استند البروفيسور برونو لاتور في رده عن الافتراض الرئيسي للنظرية إلى مبدأ الفصل بين الأشياء والناس ،وضرورة التمييز بين أنظمة الكائن الإنساني ووعيه عن الوسائل المادية التي يصنعها ممَّا بلغت درجة قوتها ،فالحتمية حسبته تتجاهل الإنسان باعتباره العنصر الفاعل في التغير ويستشهد في ذلك بالحركات الاجتماعية والثورات الفكرية التي عرفها التاريخ البشري .

ويؤكد ريتشارد بلاك بأن عبارة القرية الكونية التي قدمها ماكلوهان أصبحت غير صالحة للتوظيف ذلك أنها لم تعد موجودة ،حيث أن العالم استمر في المزيد من التطور والتسارع إلى حد أدى إلى تحطيم هذه القرية العالمية وتحويلها إلى ذرات وشظايا متناثرة ومنعزلة.(فؤاد بداني، 2014، ص 122)

وفي الأخير يقول محمد الفاتح حمدي "إن نظرية الحتمية التكنولوجية تصنف من أهم النظريات الاتصالية في الوقت الراهن وأن كل الدراسات الغربية وحتى العربية انطلقت من أفكار ماكلوهان دون مراعاة للاختلاف في الانتماء الحضاري،

حيث تمّ تقديس هذه النظرية وغلق باب الاجتهاد والتنظير للظاهرة الاتصالية والإعلامية في المجتمعات العربية والإسلامية" ويدعوا بذلك إلى تبني المقاربة المحلية لنفس النظرية من خلال نظرية الحتمية القيمة للمفكر الجزائري عبد الرحمن عزي كبدل يتلاءم في رأيه مع خصوصية المجتمع العربي والإسلامي. (حمدي، 2017)

خاتمة:

يرى الفيلسوف هيرغلطس " أن فلسفة التغير فلسفة عميقة من الصعب تحديدها في سطور أو مؤلف وذلك لامتدادها الزمني منذ وجود الخليفة ، وأن كل شيء متغير وأن التغير سابق للثبات " وبالتالي ليس هينا قراءة وتبسيط نظرية كاملة في مقال موجز خاصة إذا تعلق الأمر بظاهرة كالتغير الاجتماعي ونظرية كالحتمية التكنولوجية .

فالتطور التقني المتسارع الذي تعرفه العلوم البشرية خاصة في مجال التواصل الالكتروني جعل من الأطروحات النظرية لماكوهان " أفكارا معفية من الزمن " إذ تزداد أهمية وإقناعا كلما أثبت الاختراعات التكنولوجية قدرتها الثورية في التأثير على الإدراك المعرفي للإنسان المعاصر .

وتكاد تجمع كثير من الكتابات السوسيولوجية الحديثة على ان علماء الاجتماع يفتقدون نظرية شاملة متكاملة في تفسير وفهم التغير الاجتماعي بالرغم من ظهور عدة نظريات لتفسيره ، خاصة نظريات المرحلة الكلاسيكية أو ما تسمى بـ " العاملة " التي تنظر إلى الحقيقة من زاوية واحدة ، هذه النظريات أدت إلى ظهور نظرية عامة فالتغير الاجتماعي تقوم على أن الأفراد والجماعات يستجيبون لعوامل التغير على أساس من الاختيار والانتقاء وليس هناك أي نظرية يعود لها الفضل في تفسير عملية التغير.

قائمة المراجع:

1. أحمد ، عبدلي ، الصحافة والتغير الاجتماعي، محاضرات السداسي الخامس صحافة ، قسم الدعوة والإعلام والاتصال، جامعة الامير عبد القادر ، قسنطينة الجزائر.(2014) .
2. - بأحمد ، عزت السيد ، الثورة التكنولوجية وأثرها على تغير القيم، مجلة جامعة دمشق ، المجلد29، العدد3+4، (2013).
3. جون ، ماكليود، بحث التغير الاجتماعي (مقاربات كيفية)، ترجمة: سحر توفيق واخرون، المركز القومي للترجمة ، القاهرة ،(2014)، ص30.
4. سفيان ، بوعطيط ، القيم الشخصية في ظل التغير الاجتماعي وعلاقتها بالتوافق المهني ، اطروحة دكتوراه في علم النفس العمل والتنظيم، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ، جامعة قسنطينة ، الجزائر ،(2012).
5. عزام ، ابو الحمام ، المقاربة القيمة في نظريات اتصال غربية وعربية ، ورقة مقدمة في المؤتمر العلمي الثالث للاعلام القمي ، جامعة مستغانم ، الجزائر،(2015).
6. عوض ، السيد ، التطور التكنولوجي والجريمة ، ورقة مقدمة لاجمال المؤتمر السنوي 34 لقضايا السكان والتنمية ، المركز الديمغرافي ، القاهرة ، 19-22 ديسمبر(2004).
7. فادية ، عمر الجولاني، التغير الاجتماعي، مدخل النظرية الوظيفية لتحليل التغير، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية ،(1993).
8. لطيفة ، طبال، التغير الاجتماعي ودوره في تغير القيم الاجتماعية ، مجلة العلوم الانسانية والاجتماعية ، العدد8، جامعة ورقلة ،(2012).
9. محمد ، صفوح الأخرس ، الأبعاد الاجرائية لاثر التقنية في المجتمع العربي ، المركز العربي للدراسات الأمنية ، الرياض (1990).
10. نصير ، بوعلي، مفاهيم نظرية الحتمية القيمة في الاعلام عند عبد الرحمن عزي : مقارنة نقدية ، مجلة المستقبل العربي ، العدد442 ، مركز دراسات الوحدة العربية (2014)، بيروت ، لبنان .
11. نور الدين ، تواتي ، ماكلوهان مارشال (قراءة في نظرياته بين الأمس واليوم) ، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية ، العدد10، (2013)، جامعة قاصدي مرباح ورقلة ، الجزائر.

12. يوسف ، عدنان زامل، سوسيولوجيا التغير (قراءة مفاهيمية في ماهية التغير وإنتاجه الفكري) ، مجلة كلية التربية ، جامعة واسط ، العراق ، (2010) .

13. فؤاد ، بداني ، حتمية ماكلوهان لفهم قيمة عبدالرحمن عزي ، مجلة الدراسات والبحوث الاجتماعية ، جامعة الوادي ، العدد 4، جانفي (2014) .

14. فلاح ، جابر الغراني، وسائل الاتصال الحديثة ودورها في التغير الاجتماعي ، مجلة القادسية في الآداب والعلوم التربوية، مجلد 8، عدد 2، جامعة القادسية ، (2009).

15. جعفر ، محمد العيد، نحن والتغير الاجتماعي، بين مؤثر ومتأثر، مجلة الواحة الفصلية، العدد 60، السنة 16، (2010) ، www.alwahamag.com/act332.

16. محمد فاتح حمدي ، قراءة تحليلية في نظرية الحتمية التكنولوجية والحتمية القيمة ، مقال منشور بموقعه على الرابط www.mf-hamdi.net/

17. اسامة ، بدير، كلام في نظريات التغير الاجتماعي ، مقال منشور على موقع الديوان 2015/12/10 www.aldiwan.org/6578462.html.

18. محمد ، جاسم فاجر الموسوي، تكنولوجيا وسائل الاعلام وتأثيرها في المجتمعات (نظرية مارشال ماكلوهان) ، . mass comm.kennana online.net/posts/1422614.

19. الموسوعة العربية ، الحتمية ، الفلسفة / علم الاجتماع والعقائد / المجلد الثامن / ص 40. www.arab-ency.com.